صناع قرار مغاربة في البيت الأوروبي

مغربيات ومغاربة أعضاء في الطبقة السياسية الفاعلة، وصانعوا الذوق الفني والثقافي، ومدبرون للشأن الاجتماعي، وذوو عزم على مواجهة محنة الأزمة، وإبداع في التكافل والتضامن.

محمد المودن /إشبيلية

تتبلور في أوروبا ملامح المرحلة الثالثة من تاريخ الهجرة المغربية إلى هذه القارة، وتتشيد معها جغرافية جديدة للفاعل الأوروبي من أصل مغربي تستقر كل يوم في المركز وتغادر الهامش.

يجتاح الحضور المغربي مناطق وطبقات كانت حكرا على المحليين من أصول أوروبية أو غربية، يلجون حلبات المنافسة السياسية، ويتقلدوا شأن التدبير الاجتماعي، وينسجون ملامح لقيم التضامن بمرجعيتهم الثقافية والإنسانية الخاصة.

بالأمس في العهد الأول من هذه الرحلة، بنى المهاجر المغربي بسواعده وجهده وعرقه، العمران الأوروبي وبنياته التحتية، ساهم في انتشالها من رماد الحروب المدمرة والأزمات الاقتصادية التي عبثت بها. واليوم ابناؤه من موقع مغاير، وبقيم مماثلة يسهمون في صناعة القرار السياسي، وفي خلق الذوق العام وفي تنويع التجليات الإنسانية للسلوك الإنساني، خاصة في جانبه المتعلق بقيمة التكافل والتضامن وبالذات في البلدان الأوروبية التي عصفت بها الأزمة الاقتصادية عصفا، فباتوا يجابهون تلك المحنة بعزم وصمود لافت، على الرغم من تكالب تحرش القوى اليمينة عليهم.

بالأمس حضرت المرأة المغربية مهاجرة إلى أوروبا سيدة بحظ معدوم في القراءة والمعرفة، وقضت عهدا حبيسة جدران بيتها البارد في الغربة، وأما اليوم فهي صانعة للقرار السياسي ومدبرة للشأن الاجتماعي العام في موطنها الاغترابي.

تعبر المرحلة الثالثة من الهجرة المغربية إلى القارة الأوروبية، طريقها إلى مستقرها، ربابنتها جيل ثالث ورابع، من دون أن يكون الطريق إليه سهلا، فمازالت عوارض الاغتراب تناوش مسالكها. ومع تراكم المراحل تصبح تجربة الهجرة المغربية نوعية ومكثفة، ويكفي فقط أن تبسط "نساء من المغرب" في هذا التقرير المحطات النوعية لهذه الهجرة المغربية بالديار الأوروبية خلال العام 2012 فقط، لرسم حجم القطائع على مستوى بنية الإنجازات.

مغاربة الطبقة السياسية الأوروبية : نساء تألقن رغم التحدي

تسجل أوروبيات من أصل مغربي حضورا لا فتا في أشد مجالات الحياة تنافسا وأكثرها احتداما : وهو المجال السياسي، وبدأت أسماؤهم ترتسم على قوائم الفا علين بصالونات صناعة القرار السياسي ببلدان أوروبية.

في فرنسا هذا العام مثلا، بعد أن تقمصت الفرنسية من أصل مغربي رشيدة ذاتي حقيبة وزراة العدل في الحكومة الفرنسية الماضية عن حزب الاتحاد من أجل الأمة اليميني الذي كان يتزعمه الرئيس السابق نيكولا ساركوزي، تصبح نجاة بلقاسم وهي من أصول مغربية ناطقة باسم حكومة أقوى دولة أوروبية، ووزيرة مكلفة بالمرأة وبحقوقها في ذات الحكومة.

وفي مظهر من مظاهر الإقرار والإشادة بدور الناطقة

الرسمية باسم الحكومة الفرنسية ووزيرة حقوق المرأة من أصل مغربي نجاة بلقاسم، عمدت الصحيفة الفرنسية الشهيرة لوفيغارو إلى اختيار بلقاسم من بين أبرز الشخصيات النسائية العشرين في العالم خلال 2012، ووصفتها في تقريرهابكونها تعد "اكتشافا سياسيا" في فرنسا خلال هذا العام.

وخلال هذا العام نفسه كذلك، ودائما على المستوى السياسي، تشيِّد مغربية أخرى ببلجيكا طريقا شبيها بطريق قريناتها في فرنسا فقد نالت لأول مرة بلجيكية من أصل مغربي تدعى نادية سمينات عمدة إحدى مدن هذا البلد الأوروبي بعد انتخابات محلية شهدتها البلاد، ويعكس حجم الانتقال من هامش الفعل السياسي إلى وسطه.

وكانت قبلها أيضا في سنوات الستعينيات قد تمكنت فضيلة لعنان وهي بلجيكية من أصل مغربي من أن تظفر بحقيبة وزيرة الثقافة في هذا البلد الأوروبي.

مغاربة في قائمة صانعي الذوق الفني

أسعفت القدرة الفنية والإبداعية الناضجة لدى أفراد من مغاربة فرنسا في اقتحامهم المجال الفني بهذا البلد الأوروبي، وهو مجال صعب الاختراق يكلف الغالي والنفيس من التضحية والفطنة الفنية والملكة الإبداعية، والقدرة على استيعاب الذوق والثقافة المحليتين والتماهي معهما، وإعادة إنتاجهما بما يضمن قدرتها على النفاذ إلى نواصي الألباب.

الشاهد على هذا الإنجاز لدى مغاربة فرنسا هو اختيار شخصيتين فنيتين من أصول مغربية ضمن قائمة أبرز الشخصيات المحببة إلى الفرنسيين عام 2012، حيث حل الفنان الساخر جاد المالح ثانيا في القائمة التي أعدها معهد إيفوب الفرنسي بناء على استطلاع رأي، وأتى مواطنه من أصل مغربي جمال الدبوز وهو ممثل وكوميدي رابعا في ذات القائمة المحببة لدى الرأي العام الفرنسي.

وتبقى أهمية هذه الإنجازات في كونه يعكس مظهرا آخر أكثر أهمية، وهي أن هؤلاء الأفراد من أصول مغربية بدأوا يشكلون مصدرا من مصادر بناء الذوق العام لدى الرأي العام المحلي الفرنسي، ومن ثم قدرته على فرض نمط ثقافي وفني جديد تبقى الهوية الأصلية أحد ابرز روافده.

أقصى أوروبا

في بلدين إسكندنافيين، هما السويد وفلندا، لم يغب نجم المغاربة عن السماء الفني والثقافي، ولمعت أسماء مغربية وتربعت على قائمة الإنجازات الوطنية في هذين البلدين اللذين يعتبران منطقة اغتراب لم تترد عليها الهجرة المغربية بالحضور ذاته كما في بلدان وسط أو جنوب أوروبا.

ففي السويد ظفرت زينب نوكا طلحاوي وهي من أصل

علامة الهجرة المغربية تمتد إلى شمال أوروبا وتزهر في ثلوجها الإسكندنافية

مغربي بدورة هذا العام 2012، من المسابقة الأوروبية للإذاعة والتلفزيون "أورفوزيون"، وجلبت لهذه الدولة الإسكندنافية التي تحمل طلحاوي جنسيتها انجازا غير مسبوق وقد تفوقت على منافسات عاتيات من بلدان أوروبية يشهد تاريخهن الحافل بمستوى أدائهن.

وفي العام ذاته غنمت مواطنة فلندية من أصل مغربي تدعى سارة شقاق لقب حسناء فلندا للعام 2012، متفوقة على متنافسات كثيرات من بينهن سابينا ساركا وفيفي سوومنين.

وتعكس هذه الإنجازات حجم البذل والعطاء والجهد الذي تقتضيه تحديات الانتقال من الهامش إلى قلب المركز في مجتمع تنافسي باحتدام.

وجه آخر لعملة الهجرة : مغاربة يقاومون تحرش اليمين

للهجرة المغربية وجهها الآخر من العملة، وجه التحدي والصمود، فاستهداف المهاجرين المغاربة ضمن قطاع المهاجرين عموما إلى القارة العجوز، كان دوما مصدر نيران معادية من قوى يمينية سياسية، تقتات على خطابات التحرش والإساءة للآخر وبه تضمن غذاءها وعشاءها الانتخابي.

سجل العام 2012 مثلا، فصلا آخر من فصول حملات اليمين الأوروبي المتنامية على المغاربة سواء ضمن تجمع المهاجرين أو ضمن الجالية المسلمة، أو حتى باعتبارهم مغاربة. وسجلت هذه السنة ارتفاعا لافتا في حدة هذا التحرش خصوصا مع مواعيد الاستحقاقات السياسية المحلية والوطنية. وبات المهاجرون عموما وبينهم المغاربة منذ بدء الأزمة الاقتصادية عملة انتخابية مربحة لليمين لاستقطاب الأصوات الناخبة. وعلى الرغم من أن حجم استهداف اليمين المتطرف سواء مثلا في فرنسا أو في هولندا خلال السنة 2012 شهدا ارتفاعا ملحوظا وموصولا أساسا بالتجليات الدينية لثقافتهم، إلا أن أكبر تحرش بالجالية المغربية وأطرفه في نفس الوقت في أوروبا جرى هذا العام في مدينة انزبروك النمساوية خلال الانتخابات المحلية في أبريل الماضي، حينما وضع مرشح حزب الحرية النمساوي ملصقا إعلانيا ينعت المغاربة "باللصوص" في حملته الإنتخابية، كتب على ذات الملصق "حب الوطن بدلا من حب اللصوص المغاربة".

وشكل ذلك الحادث وجها من أبشع وجوه التوظيف الدعائي المغرض للمغاربة في الانتخابات المحلية من قبل اليمين الأوروبي المتطرف. ويعتبر حزب الحرية النمساوي أكثر الأحزاب اليمينية تطرفا وهو يرفع شعار "النمسا بدون أجانب ولا مسلمين"، وتأسس في الخمسينات من طرف نازيين سابقين كان البعض منهم قد اعتقل في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

صمود في تحمل محنة الأزمة وسعي للخروج منها

يقضي مغاربة البلدان الأوروبية المتأثرة بالأزمة الاقتصادية، ظروفا صعبة بسبب ضيق فرص العمل، وشدة وطأة الأزمة وتدعياتها عليهم. وما يضاعف من هذه المحنة أنه يشتد ثقلها عليهم من جراء السياسات التي تتخذها حكومات البلدان الأوروبية المنغمسة في الأزمة في سياق التقشف الشامل الذي ينتهجونه لتقليص العجز.

ولم تكن القوانين التي تُسن بخصوص إقامات المغاربة مثلا في إسبانيا رحيمة بهم، إذ فقد الآلاف وثائقهم بعدما عجزوا عن تجديد الإقامة بسبب قلة فرص العمل، وشهد العام 2012 أكبر تداعيات ذلك وتمثل حرمانهم من التغطية الصحية الذي أقصرته سياسة التقشف على من يملكون الوثائق وظلوا من دونها، ولم يبق لهم من ملجأ غير تضامن الأطباء المحليين الذين رفضوا باسم أخلاق مهنة الطب إغلاق أبواب المستشفيات العمومية في وجه من لايملك وثائق الإقامة.

وتبقى المحنة الأكبر لتداعيات الأزمة على المهاجرين المغاربة في إسبانيا، تلك التي تعيشها فئة واسعة من المغاربة تقدر بعشرات الآلاف ممن افتدقوا منازلهم بعدما صادرتها البنوك بسبب عجزهم عن تأدية الأقساط الشهرية، وتمعن هذه المحنة في دراميتها عندما تبلغ حدا لا يفقد فيها المهاجرون منازلهم فحسب، بل أيضا يُلْفون رقابهم مقيدة بدين يلاحقهم. وتبقى هذه أبرز وجوه محنة مغاربة إسبانيا في معركتهم مع طواحين الأزمة الحادة، يواجهونها بصلابة أكبر لتجاوزها.

أزمة اقتصادية

شكل المغاربة في أوروبا أشد الجاليات تأثرا بتداعيات الأزمة الاقتصادية على حياتهم المادية والاجتماعية والإنسانية، ألحقت بهم أكبر نسبة من الضرر : عطالة واسعة، فقد لوثائق الإقامة وللتغطية الصحية، تحرش من اليمين المتطرف، إلا أن ذلك لم يقعدها عن التحول إلى فاعل يسعى في تخفيف الأزمة وتداعياتها على شرائح اجتماعية متضررة بشكل أكبر، ورفضت أن تظل مجرد ضحية في وضع سلبي، بل بادرت إلى الفعل. ويتجلى ذلك في تنامي ظواهر التضامن والتكافل الاجتماعيين في بلدان الاستقبال يكون أبطالها مهاجرون مغاربة إلى جانب آخرين.

وفي السنة المنقضية 2012 ومطلع هذه الجارية 2013 تعيش مدن إسبانية خاصة العاصمة مدريد، ظاهرة إنسانية لافتة، تتحول فيها مهاجرات مغربيات وهن من الطبقة الاجتماعية التي مسها في قدراتها المادية

مغربيات في مدريد "ملائكة الليل" لتخفيف وطء الفاقة على أديم المحتاجين

على نحو ما الوضع الاقتصادي العام المتردي، إلى فاعل اجتماعي إيجابي لم تقعده ظروفه الاقتصادية عن الانخراط في الأوراش الإنسانية غير المرئية، والتحول إلى فاعل إيجابي غير سلبي تبادر إلى ترميم الشروخ الإنسانية والاجتماعية التي أفرزها التصدع الاقتصادي والمالي للناس والمجتمع.

شابات مغربيات بعضهن طالبات وأخريات يعملن في وظائف بأجر متوسط، يقررن أن يخرجن ليلا وقد اعددن وجبات طعام من "سندويس منزلي وحساء وقهوة " في حملة تضامن، يطعمون من خلالها مشردين وأناسا بدون مأوى أو مطعم، لفظتهم ظروفهم الاقتصادية والمالية إلى أركان الشوارع.

خرج هذا الكوماندو النسائي الإنساني يقوده وازعه التضامني للمساهمة بدور في تخفيف المعاناة عن الناس. كن يخرجن مع فرقة من شبان وشابات أخريات إسبان ومن أصول مهجرية أخرى، يوزعن ليلا الطعام لمن هم بحاجة إليه من المعوزين والمحتاجين في ليل إسبانيا البارد، الذين لم يعرفوا طريقا إلى المطاعم الإجتماعية.

تظهر الهجرة النسائية المغربية عن وجهها الإنساني العميق. تداولت وسائل الإعلام الإسبانية مبادرة هؤلاء المغربيات الأربع إلى جانب مواطنين ومواطنات إسبان ومهاجرين أخرين وأشادت بروحهن الطافحة بعزيمة التكافل والتضامن اللافت. أولئك المغربيات لم تقعدهن ظروفهن عن أن يصيرن غنيات بفعلهن على الرغم من قلة ذات اليد، ويجسدن لونا اخر من ألوان التكافل ورافدا من روافد التضامن، ويصبغن بفعلهن ذالك وجه منجز الهجرة المغربية الإنساني في مجتمع الاستقبال في هذه السنة الأخيرة.

منجز كفيل بهدم الصور النمطية

تجليات منجز الهجرة المغربية إلى بلدان أوروبا باتت أكثر وضوحا، وراكمت عطاء إنسانية لافتا، بات المغاربة من خلال أوضاعهم الاعتبارية الجديدة مستقرين بالمركز لا بالهامش، قريبين من مناطق القرار بل باتوا مشاركين في صناعته. يشهد عليه وضعهم في داخل الطبقة السياسية الفرنسية والبلجيكية وغيرها، يتبؤون مناصب قيادية ويشغلون مواقع توجيه. وفي المجال الاجتماعي مكنهم منجزهم الإنساني والعملي من الانخراط في مواقع المسؤولية الاجتماعية لتدبير تحديات مجتمعهم المهجري /المحلي. أصبحوا ثقافيا وفنيا مشاركين في خلق الذوق العام لمجتمعات الاستقبال، يغنونه بمرجعياتهم الثقافية المتعددة وبإبداعهم الشخصي المكنون بروافد تمزج أفاقا جمالية وإنسانية متعددة. ويسهم عطاؤهم الروحي من خلال مبادرات إنسانية خلاقة تنطق تضامنا وتكافلا آسرين. يتراكم كل ذلك ويتحول إلى معين تفور منه ملامح صورة ثقافية وإنسانية عن ذاك الفرد امراة أو رجلا من أصول مغربية، أكثر تحررا من رواسب النظرات النمطية والجاهزة السابقة، تبزغ صورة جديدة باعتبار ثقافي وإنساني أكثر إنصافا.■